اللامعقول في الفلسفة الوجودية

أ.م.د. نبيل رشاد سعيد
النجف / كلية الدراسات الإنسانية الجامعة

الملخص:

في رأي الوجودية أنه من العبث أن نتصور للحياة غاية معينة أو خطة مرسومة ، وكل ما يحدث في حياة الإنسان (عشوائيّ) لا يمكن التنبؤ به، لذلك فالحياة لا معقولة (عبث). واللامعقول أو Absurd فكرة وجودية تعني (لا منطقيّ). وفضلاً عن ذلك أنّ (جوهر) اللامعقول عند الوجودية هو أنّ البشر محكوم عليهم بالموت. فالوجودية على خلاف كامل مع التراث الفلسفيّ الذي يقر بالعقل أساساً له، منذ (بارمنيدس) إلى (هيجل) الذي مجد العقل.

Absurdity in Existential Philosophy

Asst. Prof. Nabiel Rashad Saeed
Department of Media
University College of Humanity Studies Al-Najaf

Abstract:

In the opinion of Existentialism, it is impossible for life that it is specific aim or plan . And all what happens in the life of human is " Random " and cannot predicted it . For that , the life is absurd (futility). And the absurd is an existential idea that means (not logical). And the substance of absurd for the Existentialism that the human is convicts by death. The existential is in conflict with the tradition of the philosophy which believes in mind. From " Parmenides " to " Hegel " who glory the mind.

التمهيد:

إنّ فكرة " اللامعقول " من أبرز مقولات الفلسفة الوجودية Existentialism إذ أن الوجوديين لا يعترفون بوجود فلسفة وجودية واحدة ، وإنما لكل فيلسوف " فلسفة خاصة " نابعة من حياته التي لا تشبهها حياة أي إنسان آخر ، إلا أن عنصر " اللامعقول " صفة تكاد تكون شاملة ، فالفلسفات الوجودية تعتمد الحدس Intuition وليس العقل في سبيل فهم العالم ، لذلك هاجموا الفلاسفة العقليين أمثال " ديكارت " و" وكانط " و" هيجل " القائلين بأن العقل قوة هائلة يستطيع الإنسان بها أن يحل مشاكله ويفسر له كل شيء تقريباً .

وسنبين في هذا المجال معنى اللامعقول ، وثم تأثيرات فلاسفة أمثال " باسكال " و " شوبنهور " و" وبوانكاريه " على الفلسفات الوجودية ، إذ كان لهذه التيارات أثر كبير في التقليل من قيمة العقل ؛ وإن هذا العالم لا يسير على نظام معين حسب رأيهم ٠ وبعد ذلك نعرض للسبب الرئيس لقولهم باللامعقول .

اللامعقول:

إن فكرة اللامعقول تتطلب العودة إلى قول باسكال Pascal المأثور : " توجد أشياء لا متناهية؛ والتي هي فوق قدرات العقل " . إن أسباب نشوء الفلسفات الوجودية تعتمد الأسئلة التالية :

لماذا ولدت في هذا الزمان بالذات ؟ ولماذا أكون في هذا البلد أو في هذه العائلة التي لم اخترها أنا ومجبر على أن اقبلها ٠ وكذلك مشكلة الموت – لماذا ولدت ثم أموت ؟ وهناك حقائق أخرى نعيشها في هذا العالم لها طبيعة مجزعة لنا . ونحن لا نعرف لماذا توجد الحياة . ومثل هذه القضايا من المستحيل إدراكها ؛ أنها أشياء متعذر تفسيرها . وإن كل هذه الظواهر المذكورة تسمى " اللامعقولة " irrational وهذا يعني أنها غير قابلة للتعقل ؛ غير منطقية ، أو أبسورد فلا يمكن بواسطة العقل أدراك هذه الأشياء ، فهي غير معقولة . ويمكن أن تتساوى مع اللامعنى senseless. (١)

العبث Absurdity أو اللامعقول Absurd : فكرة وجودية أو مبدأ وجودي ... واللامعقول بمعنى (لا منطقي) ، وهو ليس المعنى المعروف لدى الناس بأنه عمل غير منسجم مع العادات السائدة ، أو انه خارج الأخلاق العامة . اللامعقول لدى الوجودية هو الشئ " غير المتسق مع الحقيقة " أو المنطق أو العقل ، أي أن هذا العالم أو الحياة التي نعيش غير معقولة أو الأصح لم توجد من أجل الإنسان وسعادته ، فهي حياة قلق ومعاناة وشقاء وخوف ، وهناك فرق بين الخوف والقلق (٢) والشقاء والمعاناة والموت ، ويتخلل ذلك الجهاد والعمل طوال الحياة .. فالحياة عند

الوجودية " عشوائية " أو " عارضة " لا يمكن التنبؤ بها ، وبالتالي لا توجد ثقة في هذا العالم المحشو بالخوف وعدم الأمان ، فالحياة عند الوجودية بلا معنى أي " أنها تخلو من خطة كونية عاقلة " . (٣)

والوجودية على خلاف مع الفلسفات الأخرى التي ترى التفكير والعقل أساس المعرفة ، بل أنها على خلاف مع التراث الفلسفي كله ، وظلت فكرة سيادة نظرية المعرفة حتى ظهور الوجودية إذ بدأ الارتياب في الإيمان بالعقل . فقد كان السبق في العصور الحديثة من نصيب مشكلة المعرفة إذ أكد " ديكارت " أن أولوية الجانب العقلاني ولوك أكد على الجانب التجريبي وأعطوا دفعة قوية للبحث الفلسفي في أسس المعرفة . (٤) فقد ذهب الفلاسفة القدماء إلى أن التفكير والواقع شيء واحد، ذلك منذ بارمنيدس القائل أن التفكير والوجود شيء واحد . ظل هذا التراث الذي يقول بالعقل أساس المعرفة راسخاً ، حتى ظهور الفلسفة الحديثة .. وقد عبر عن ذلك " هيجل " (٥) الذي قال: إن كل ما هو واقعي عقلي، فهو فكر مطلق يفكر في ذاته. ويقول" هيجل " في كتابه " محاضرات في فلسفة التاريخ " : إن العقل من ناحية جوهر الكون وفيه كل وجود واقعي حقيقي ، ومن ناحية أخرى العقل هو الطاقة اللامتناهية للكون .... " . (٦)

ويرى " هيجل " : إن العقل هو الحق الخالد ذو القوة المطلقة .. والعقل يكشف نفسه في العالم، أي أن هذا العقل يكشف عن عظمته ومجده في هذا العالم .(٧)

بلغت الفلسفة العقلية أعلى مرحلة لها على يد " هيجل " الذي جعل الواقع معقولاً ، بل كل شيء عنده صار معقولاً . وبهذا فالبناء الفلسفي عنده مجموعة تصورات عقلية مجردة يربط بينها منطق محكم هو منطق " الديالكتيك " Dialectic.

هاجم الوجوديون فلسفة " هيجل " الشمولية ، وأبرزهم كيركجورد ؛ وما هو أكثر أهمية كان عدائهم العميق لأي تفسير للعالم يقوم على الأفكار المجردة – بينما الأمر يتطلب الاهتمام بالوجود الفردي والوجود الفردي هو نقطة البداية للفلاسفة الوجوديين . وكل شيء مرتبط بالذات الإنسانية ؛ وهم ضد كل نموذج يشبه النموذج الهيجلي .(٨) وعند ظهور الفكر الوجودي بدأت النظرة إلى العقل ودوره ، في حياة البشر ، يتغير ، فانتقلت من إعطاء العقل المكانة الكبرى إلى فكرة اللامعقول .

فالوجوديون يقفون ضد متطلبات العقل وهم يجعلون المتطلبات المطلقة لا عقلية irrational، وبدلاً من العلم أو التفكير العقلي يجعلون كل شيء لا عقلاني . (٩)

ويعد كيركجورد (١٠) أول من استخدم مصطلح " اللامعقول " إذ تبدأ فلسفته من نقده لـ " هيجل " ، وشمل هذا النقد التفكير العقلي برمته .(١١) إلا أن " سارتر " و " كامي " قد أشاعا

استخدام المصطلح ، فقد قال " كامي " بفكرة " العبث " ويعني بها " اللامعقول " وأقام عليها دراسته في " أسطورة سيزيف " (١٢) ١٩٤٢ . وقد شرح فيها معنى " اللامعقول " أو العبث .

ربما كان " كيركجورد " من دون هؤلاء الفلاسفة والمفكرين هو الوحيد الذي كشف اللامعقول في الحياة ... وهو الوحيد الذي عاش هذا " اللامعقول " .(١٣) إلا أن العلاقة بين الفلسفة والوجودية وظاهرة اللامعقول وجدت منذ القرن التاسع عشر الذي شهد تطورات علمية كبيرة في أوروبا ، وكان من نتائج الاكتشافات العلمية إيمان الإنسان بمكانة العقل وسيادته في صنع الحياة (١٤) . ومستقبل الإنسان وسعادته – كما كان يظن .

وعلى الرغم من أن الفلاسفة الوجوديون عموما لاعقلانيين ؛ بمعنى اعتمادهم على الانفعالات والعواطف وليس على العقل. ولكن وجدنا من الفلاسفة الوجوديين وهو " مارتن هيدجر " (١٨٨٩–١٩٧٦) الذي رأى بأنه لا مجال للعواطف في الفلسفة : فالفلسفة هي التي تدير أمور العقل أساسا. كتب هيدجر مقالة بعنوان : ما الفلسفة ؟ وبّين فيها أن على الإنسان أن يتفلسف ؛ وان يتخذ موقفا معينا . ورفض هيدجر أن يكون مرجع التفلسف إلى العواطف .

يرى هيدجر أن الفلسفة تعتمد على العقل وترفض اللامعقول ، لان الفلسفة في حقيقتها تعتمد على العقل لتدبير سلوك الإنسان في الحياة ؛ فأن الفلسفة لا تنتمي لمجال اللامعقول . ويقول هيدجر :" فالعواطف – حتى أجملها – لا مكان لها في الفلسفة ، فهي كما قيل – شيء لامعقول . والفلسفة على العكس من هذا ليست فقط معقولة ، بل هي التي تدير أمور العقل.

لقد خشي هيدجر من أن يفهم من ذلك أن مرجع التفلسف إلى العاطفة ،فقال في تلك المقالة: ينشأ الأدب الرديء من العواطف الجميلة كما قال " أندرية جيد " (١٨٦٩–١٩٥١). وهذا قول لا يصدق على الأدب فحسب ؛ بل هو على الفلسفة أكثر صدقا . فالعواطف حتى ما كان منها أجملها ، لا مكان لها في الفلسفة ، لأنها كما قيل شيء لامعقول ، أما الفلسفة على العكس فهي ليست فقط شيئا معقولا ، بل هي التي تثير أمور العقل . (١٥)

إن مرجع المعقول واللامعقول في الفلسفة يعتمد على صاحبها ، فإذا تغلب المزاج الشخصي أي العاطفي أو الانفعالي نقول عنها أنها فلسفة لا معقولة؛ لكونها لا تعتمد في تفسيرها للأشياء على العقل . أما إذا كانت الفلسفة ذات أفكار عقلية أي مؤسسة على التفكير أي العقل وإحكامه نقول عنها إنها فلسفة عقلانية .

وعلى أية حال ، يطلق العقلانية على ما يقوم به العقل من تدبير وتنظيم فالمعطيات التي يكسبها الإنسان من المشاهدات الخارجية والتي يقوم العقل بتنظيمها ويخلق منها القوانين . فالعقلانية كل مذهب يقيم الأشياء على أساس عقلي . والفلاسفة العقليون أمثال ديكارت والتجريبيون من أمثال بيكون . أما " كانط " فقد كان ينظر نظرة نقدية للأشياء – فقد كان يريد أن

يمتحن العقل ويختبره . أما الفلسفات الوجودية الأخرى التي تقول بلا معقولية هذا العالم بما يحتويه من تناقضات ومعاناة ، فإنها تقر بضعف قدرات العقل في فهم العالم.

ضعف قدرات العقل:

استخدم الإنسان كل طاقاته العقلية في العصر الحديث ، لاسيما في حربين عالميين دمر بهما الإنسانية وحضارتها واستخدم فيها (في الحرب الثانية) السلاح النووي ، وهذه إحدى ثمار العقل ... لهذا فإن الإنسان أصبح يتساءل عن مكانة و " قيمة العقل " .. وجد الإنسان أن العقل قاصر وغير قادر على حل مشكلاته . (١٦)

لقد تعرض الإيمان بالعقل إلى نكسات ، إذ أن الناس أصبحت تنتابهم أحاسيس عبثية كالخوف والقلق واليأس . وهذه الأحاسيس أو الشعور بالعبثية واليأس اللامعقولة ظهرت أكثر وضوحاً أثر الحروب الدائمة بين البشر وما قدمه العقل من صناعة للسلاح الفتاك وخطط لقتل الإنسان ، وهذا مما حدا بالإنسان الأوروبي بأن يشكك بالعقل ويظهر قصوره .

ووجد الأوروبي أن هناك مجالات لا تخضع للعقل ولا يستطيع أن يتغلغل إليها عن طريق التفسير أو التعقيل مثل : أعماق الإنسان ، لهذا فقد تولت الوجودية الإجابة عن تفسير أعماق الإنسان . وقد خاض الوجوديون في المسائل العبثية كالقلق واليأس ... الخ . وقد يكون هناك بعض التصورات المختلفة للفلاسفة الوجوديين إلا أنهم متفقين على حقيقة هي " لا معقولية " هذا العالم . وقد عبرت الوجودية عن تفسيرها للامعقول عن طريق علم النفس الوجودي لاسيما عند سارتر .

ولا بد من الإشارة إلى أن أبرز علماء علم النفس متفقين على إنكار أن العقل يسيطر على الإنسان .. ، فقد أثبت " فرويد " (١٨٥٦-١٩٣٩) ويونج " (١٨٧٥-١٩٦١) الدور الذي تلعبه النوازع اللاشعورية في حياتنا العقلية ، وذلك لعدم استطاعة تفكيرنا السيطرة على تلك النوازع، لذلك جاءت المدرسة التحليلية في علم النفس بفكرة الشعور واللاشعور التي فسرت بها سلوك الإنسان ونوازعه .

وإذا كان هناك عقل ، فهو عقل " لامعقول " – إن صح التعبير – فكيف نطلق على العقل أنه ينظم الحياة وأساس سعادة الإنسان ، وهو الذي يقتل الإنسان ، بل أن هذا العقل "لا معقول" لأنه في النهاية سوف يؤدي إلى إبادة كل شيء من على وجه الأرض .

أشاع كل من مالرو (١٧) وكامي (١٨) وسارتر(١٩) فكرة " اللامعقول " إذ ظهر في الأدب الفرنسي، إلا أنهم جعلوا له معنى فلسفي ، وجوهره هو استعصاء العالم على الخضوع للمقاييس العقلية. (٢٠) لقد شك كثير من المفكرين بالعقل أمام الوجود ، فالوجوديين وقفوا ضد العقل وثاروا على " هيجل " ، فرفضوا العقل كوسيلة لفهم العالم . وهؤلاء أرادوا إيجاد وسيلة يستطيعون بها أن

يقيموا علاقة بين الفرد " الإنسان " و " التجربة "، ورفضوا العقل لكنهم قالوا بالحدس . (٢١) وقد اسهم في هذا المفهوم علم النفس الحديث .

حاول الإنسان أن يفهم العالم بالعقل فقام بتنظيمه ومحاولة " عقلنة " (٢٢) الكون وفهمه ، لكن الإنسان عندما يخوض التجربة لمعرفة العالم لا يجد إلا الفوضى chaos وعدم إذعان الكون لعملية التعقل التي يحاول أن يقوم بها ، ونتيجة هذه التجربة لم يتلق سوى : أن " الوجود غير معقول " ، وان محاولته في تفسير الكون غير مجدية . (٢٣)

وعلى أية حال ، إن اللاعقلانية مذهب في الفلسفة ، يؤكد أنصاره على " محدودية قدرات الإنسان العقلية " ، ويرون أن المعرفة تكون عن طريق " الحدس والإشراق " .. ويذهب الوجوديون اللاعقليون إلى أن الإنسان لا يستطيع عن طريق العقل التغلغل إلى أعماق أسرار الوجود ، لأن الواقع – في رأيهم – خلو من الانتظام والقوانين ، وخاضع للصدفة ، ولإرادة عمياء. (٢٤)

لم يسّلم الوجوديون بما زعمه فلاسفة " **عصر العقل** " (٢٥) : بأن العقل قوة مطلقة ، يستطيع أن يحل جميع المشكلات ، بما فيها الإنسانية ، ووقفوا مع القائلين بأن قدرات العقل محدودة ، لا يمكن للعقل أن يقدم لنا تفسيراً لجميع أمور الواقع .(٢٦)

العلوم الطبيعية والنزعة العقلية :

بقيت الفلسفة ومنذ الفلسفة اليونانية القديمة تؤكد على ما هو عقلي ، أي قبل ألفان وخمسمائة عام ، منذ " طاليس " حوالي (٦٣٦-٥٤٦ ق . م) أول فيلسوف نظر إلى العالم المحسوس محاولاً البرهنة عليه عقلياً ، وظل الفكر الإنساني منذ ذلك الحين يعد " العقل " الأساس لتعقل أو إدراك العالم الخارجي أو معرفة الأشياء الخارجية ، بل و زعم بمعرفة ما وراء العالم الخارجي (الميتافيزيقا) . فالفلسفة العقلانية ترى العالم يدرك بالعقل ، والعقل هو الوسيلة الرئيسة للمعرفة – كما ذكرنا – وهذه الفلسفة تكون مقابل " المذهب التجريبي " الذي يعتمد المعرفة عن طريق التجربة الحسية .

ففي زمن النهضة العلمية وجهود " فولتير " وغيره من الذين دافعوا عن العقل وقدراته على حل مشكلات البشر ... فقد كانوا يرون الكون أشبه بآلة ضخمة بإمكان العقل أن يكشف قوانينه وأسراره .. وسيظل العقل يكشف أسرار المجهول إذ يؤدي بالإنسان إلى الرقي والتقدم المستمرين . وفي عصر العلم الذي سيطر على العقول في القرنين ١٨ و ١٩ خاصة كان عصر تمجيد العقل ، فقد استطاع العقل البشري أن يحقق إنجازات ضخمة في جميع ميادين المعرفة والحياة ، إلا أن الاعتداد بالعقل وتمجيده كان لا بد أن يقابل برد فعل قوي .

وفي مجال ردود الأفعال لعصر العلم والعقل .. ظهرت ثلاث اتجاهات كان لها أثر كبير في رفض العقل وتأثيرها على الفلسفات الوجودية :

الأول: موقف باسكال (٢٧) من العقل في القرن التاسع عشر:

يعد باسكال رائداً في هذا الميدان وملهماً أساسيا في موقفه ضد النزعة العقلية للفلسفة الوجودية المعاصرة . عارض " باسكال " النزعة العقلية ، لأنه أدرك أن المعرفة العقلية خالية من أي يقين ، فالعقل عاجز عن الإدراك والبرهنة الدقيقة .

سخر " باسكال " من " ديكارت " الذي كان يرى أن العقل يستطيع معرفة كل شيء ، في حين أن " باسكال " وضع المعرفة القلبية في مقابل " العقل " . ويقصد بالقلب أي " الحدس " Intuition لأن " باسكال " يرى أن للعقل حدود ، وأننا نعرف الحقيقة ليس بواسطة العقل، بل بواسطة القلب أيضاً ، فبالقلب نعرف المبادئ الأولى .(٢٨)

إن معرفة الزمان والمكان ، مثلاً ، تكون عن طريق الوجدان أو القلب . إن القلب يشعر أن هناك ثلاثة أبعاد في المكان وأن الأعداد لا متناهية ، ومن ثم يأتي العقل . (٢٩)

والتجربة هي التي تقدم وقائع الطبيعة التي ينبغي للفيزياء معرفتها وتفسيرها ، أما العقل فعاجز عن الوصول إلى حقائق العلم الطبيعي ، وعاجز عن تفسير الواقع الإنساني ، بل أن العقل عاجز عن تحصيل العلم والمعرفة بصفة عامة .

ويرى " باسكال " أن التجربة هي التي تفيدنا ، ويقصد الافتراضات التي أجريناها في الطبيعة . ويرفض أي بحث يقع خارج نطاق التجربة ، ويرفض تماماً رأي " ديكارت " الذي زعم أنه يستنتج قوانين الحركة من صفات الله عقلياً ، وأنه يرتكب خطأ منهجياً . وأن التجارب في الطبيعة هي التي تتيح فهمها فقط .(٣٠) هذا التصور للعقل من قبل " باسكال " قوى تيار (اللاعقلانية) والذي سيؤثر – فيما بعد – على الفلسفات الوجودية .

الاتجاه الثاني/ شوبنهور (١٧٨٨– ١٨٦٠):

على الرغم من أن " شوبنهور " لا يدخل ضمن عنوان الفلاسفة الوجوديون إلا أن جانباً كبيراً من فلسفته يدخل ضمن التفكير الوجودي . ففكرة اللامعقول عنده من أبرز ما كتب عن هذا الموضوع إذ أنه وقف موقفاً صريحاً وواضحاً من العقل ، فرأى أن العقل لا يوجه الحياة البشرية، بل هناك شيء آخر هو الأساس في الحياة ألا وهو " الإرادة " أو " إرادة الحياة " .. وبذلك فإنه وقف ضد العقل بل ضد التيار الذي يقدس العقل لاسيما " هيجل " .

والواقع فقد اتفق جميع الفلاسفة على أن جوهر العقل الفكر والإدراك ، إلا أنه يجب طرح هذه الغلطة القديمة ، وفق مذهب " شوبنهور " فليس الإدراك إلا مجرد سطح لعقولنا لا نعرف عنه

شيئاً ، فوراء العقل الواعي تقبع الإرادة الشعورية واللاشعورية ، وهي قوة حية ملحة ، وهي نشاط ذاتي ، وإرادة رغبة مستمرة . وقد يبدو العقل أحياناً ، موجهاً للإرادة ، ولكنه في هذه الحال لا يكون إلا دليلا يقود سيده ، فالإرادة هي الرجل الأعمى الذي يحمل على كتفيه الرجل الأعرج الذي يستطيع أن يرى .(٣١)

يصف " شوبنهور " الإرادة بأنها عمياء مندفعة لا عقلانية .. فالإرادة لا معقولة ، بل أن العقل تابع لها . " الإرادة عند شوبنهور أساساً للناحية اللاعقلية التي تسود مذهبه باعتبارها قوة لا عاقلة تكون سيداً للعقل أو أن هذا الأخير مجرد تابع لها " . (٣٢) وكان للنزعة اللامعقولة عند " شوبنهور " أثر كبير في القرن ١٩ و ٢٠ ، وهو بهذه الفكرة قد قلل من مكانة العقل بل هدم ذلك الكيان الذي بناه الفلاسفة منذ زمن اليونان .

الفكرة التي تشكل جوهر الواقع ، عند شوبنهور ، هي " الإرادة " وهي أساسا لامعقولة ونتيجة لذلك فهي تؤدي إلى اللانظام والشر (٣٣) .

وفي نزوع " شوبنهور " إلى اللامعقول ، أو لامعقولية الإرادة .. يظهر الفارق بينه وبين المفكرين المعاصرين له : " فختة " و " شلنج " .. فلنأخذ " فختة " مثلاً فإن الإرادة عنده تختلف عن رأي " شوبنهور " إذ يرى " فختة " أن الإرادة عاقلة ، بل أنها والعقل سواء.(٣٤) ونجده يعارض الذين يقولون أن العقل يستطيع الوصول إلى المعرفة الحقة ، ويعبرون عن ذلك بالأفكار الفطرية مثل " ديكارت " و " ليبنتز " .. أو بالأفكار " القبلية " في ذهن الإنسان قبل التجربة عند كانط ، بل إنّ شوبنهور رفض العقل لان دوره محدود ؛ فأكد على الإرادة التي تتصف باللاعقلانية وانها جوهر العالم ؛ بل أن مذهب الإرادة هو صورة من صور اللاعقلانية ، والعالم يخضع للإرادة إرادة الحياة، كما أنه عارض الفلاسفة الذين أعطوا " العقل " إمكانية مطلقة ، إذ أن " هيجل " مثلاً قد رأى أن الوجود لا يسير إلا على قواعد عقلية محكمة .

إن معرفة العالم الظاهرتي تظهر بوضوح في فلسفته اللاعقلانية ، إنه شدد على أهمية " الحدس " يجعله مبدأً عاماً لكل معرفة ، بطبيعة الحال ، أن مبدأ الحدس اللاعقلاني ينطبق على معرفة الشيء – في – ذاته الذي هو الإرادة ، فالعقل عنده ليس جوهر الإنسان .(٣٥)

كان " العقل " في الفكر الفلسفي هو جوهر الإنسان ، بينما " شوبنهور " قلب المعادلة فرأى أن الإرادة هي جوهر الإنسان وأن العقل شيئاً ثانوياً بالنسبة للإرادة ، والإرادة لا تتصف بالمعقولية: إنها عمياء ، قوة مندفعة ، وبالتالي فهي ليست كونها " معقول منظم " ، فهي لا تسير بطبيعة الحال على قواعد ثابتة مرسومة مسبقاً .

ويأتي " شوبنهور " بمثال عن قوة الإرادة وأثرها في حياة الإنسان ، وذلك عندما ينتقد المنطق ويقول عنه أنه لا يساعدنا بشيء ، في حين أن المناطقة يفخرون بأن المنطق هو أساس

قواعد التفكير العقلي ، يرى " شوبنهور " " إذ أن سير الإنسان في بعض أفعاله بحسب المنطق لا يدل على أن إرادته في جوهرها عاقلة ... ذلك أن في الإرادة ... عنصراً لا معقولاً باستمرار، ولو جرت الأفعال تبعاً لاستدلال منطقي " .(٣٦)

ويتساءل " شوبنهور " عن هذا التّعلق الشديد بالحياة : هل أنه تفكير مصدره العقل ، بمعنى هل أن الإنسان عن طريق تفكيره توصل إلى أن الحياة تستحق كل هذه التضحية ؟ بينما لو فكرنا قليلاً لوجدنا أن الحياة لا تستحق العيش والاستمرار فيها ويكفي أن العقل المحدود يقول لنا أنها مملوءة بالمصائب والأمراض وهي قصيرة ويتبعها الموت الحتمي . وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان متعلق بها بصورة شديدة .. إذن هناك شيء آخر غير العقل يجعله يحب الحياة والاستمرار فيها .. وهذا الشيء هو " الإرادة " ، أنها الإرادة العمياء التي تدفع الكائنات لحب الحياة بكل نزعاتها فهذا التعلق بالحياة : " ليس مصدره العقل والتفكير . فقليل من التأمل لإقناعنا أن الحياة ليست خليقة بشيء من الحب والاستمرار . وليس من المؤكد أن الوجود خير من اللاوجود ، بل لعل العكس أن يكون هو الصحيح ... "(٣٧)

يفرق " شوبنهور " بين العقل واللاعقل (الإرادة) .. فالإرادة لا تتعب لأنها تمثل الفطرة أو الغريزة ، فهي لا تتعب مطلقاً والإرادة لا تحتاج إلى تغذية ، بينما العقل يتعب ويحتاج إلى النوم ليعود إلى نشاطه . والعقل متصل بالمخ والأعصاب فهو يشعر بالإرهاق أو التعب والتشويش بينما الإرادة لا تتعب وتقوم بكل شيء وبصورة تلقائية ولا تحتاج إلى الراحة .

الاتجاه الثالث/ موقف بوانكاريه من العلوم الطبيعية:

نقد هنري بوانكاريه (٣٨) Henri Poincare العلماء الذين قالوا بالقوانين الثابتة الواضحة القادرة على تفسير الطبيعة .. وقد حاول أن يبين أن العلم الحديث ليس ذو قيمة ، فهو " تركيب صناعي " . رأى بوانكاريه أن النظريات العلمية هي مجرد " مواضعات " أي رموز ومصطلحات تواضع عليها العلماء واستخدموها في قضياهم العلمية . وهذه الرموز يضعها " العقل " ليعبر بها عن العلاقات بين الظواهر الطبيعية المختلفة ، أنها مجرد " تعريفات " ، ولكنها ليست " حقيقية " ، أي أنها لا تنفذ إلى الوجود الحقيقي .(٣٩) لهذا فالقوانين التي يضعها العلماء ليفسروا بها الظواهر الطبيعية لا تقوم على أساس عقلي أو منطقي ؛ بل مجرد افتراضات يحاول بها الإنسان معرفة الظواهر الطبيعية .

" لا يتكون العلم سوى من مواضعات ، ومن هذا وحده يستمد يقينية الظاهر . والحوادث العلمية عمل اصطناعي يقوم به العالم ويخلقه ، فبالأحرى القوانين لا يستطيع العلم إذن أن يمدنا بأية معرفة عن الحقيقة ، فهو لا يمكن أن يصلح إلا كقاعدة للعمل " .(٤٠)

فالقوانين التي بين أيدينا ليست في نظر العلماء سوى احتمالات . فالعلم إذن يفترض افتراضات ويقيم عليها الحجج والأدلة من خلال قوانين يصطنعها . وهي عبارة عن مواضعات أي رموز – كما أشرنا – وبالتالي فهي ليست من طبيعة الواقع الذي تبغي معرفته أو تفسيره .

" من الخطأ وصف نظرية ما بالصحة إذ ليس هناك نظرية صحيحة بالإطلاق ، فالنظريات تتعدل وتتغير باستمرار وكم من نظرية قامت نظرية أخرى لتكذيبها وتلغيها . وإذن ، فإن النظرية لا تكون صحيحة أو غير صحيحة ، وإنما تكون ملائمة أو غير ذلك " .(٤١)

وبهذا تظل النظريات العلمية فضفاضة ونسبية تصلح لعدة تفسيرات أو لأكثر من ظاهرة ولكنها ليست " علة كافية " مفسرة للظواهر . وبهذا لا توجد عندنا أدلة تجريبية قاطعة في ميدان العلم . والعقل عموماً يعتمد على فكرة العلة . وبالتالي ففي ميدان العلم الطبيعي تزعزعت مكانة العقل .(٤٢)

فإذا قلنا أن النظريات تتعدل أو تتغير باستمرار لأن العالم المادي متغير ومتبدل لا يمكن الإمساك به (بالقوانين). فالعقل لا يستطيع أن يفسر كل شيء .

كان مفروضاً على العلم أن يدرس كل شيء ، لكنه صار هو نفسه افتراضياً ، وصار الوضوح مجازاً .. وعندئذ أدرك أنه لو كان العلم يتيح الإمساك بالظواهر وحصرها لكان ذلك قد يسّر لنا فهم العالم . ولو أمسكنا بالعالم خطأ خطأ بالأصبع فلن تزيد المعرفة به . ومع ذلك فإن وصف العالم وصفاً دقيقاً لا يعلمنا شيئاً ، وأن الافتراضات التي يدعي العلماء أنها تعلمنا ، لكنها لا تعلمنا شيئاً فعلاً . (٤٣)

لو أخذنا رأي علم الأحياء لوجدنا بأن هناك شيء غامض في الطبيعة يتحدى كل تفسير عقلي ، وكلما تقدم العلم أوضح عجزه . فالعلم قام بتفسير ترقي (تطور) الحياة البيولوجية على أساس مستمر ومتصل ويسير من الأدنى إلى الأرقى .. ولكن الآن أصبح واضح بأن التطور يعاني من مفاجآت ووثبات مفاجئة تحدث له ، فبعض أنواع الكائنات يقف تقدمها ولا يوجد تفسير لها وكأن الطبيعة قد غيرت مجراها وعدلت خطتها .

والواقع ، في الأصل ، غير منظم تماماً ومن المستحيل على العقل أن يفسره عن طريق النظريات ، فإمكانيات العقل ضعيفة وذات قدرات محدودة .

وهكذا أخذت سلطة العقل تتهدم " وإن جميع العلوم إذن اهتزت من أساسها . وأساس العلم كما قررته الفلسفة التقليدية هو العقل ، فهذه التيارات العلمية إذن تعاونت على هدم سلطة العقل ، وأبرزت عجزه في نواح متعددة ، مما أدى إلى تنحيته – العقل – . وبالتالي إلى ظهور فكرة

اللامعقول وانتفاء المعنى " .(٤٤) وبهذا فالعلم مجرد افتراضات عند " بوانكاريه " – ليست يقينية ، وأن العقل لا يستطيع أن يفسر كل شيء.

الوجود واللامعقول عند أبرز الفلسفات الوجودية:

أ- الوجود والأحداث العارضة عند سارتر :

إن تاريخ حياة الإنسان الفرد سلسلة من " الأحداث العارضة " ، لأن كل ما نفعله أو نصادفه جاء " بالصدفة " أي بصورة " عرضية " . " فإن الوجود طالما كان .. وجوداً عارضاً، فإن الحياة لا بد أن تكون من قبل العبث أو اللامعقول .. بالمعنى المنطقي لهذه الكلمة، أعني أنها غير متسقة مع الحقيقة " . (٤٥)

والعرضية في حياة الإنسان دلالة على الابسورد " اللامعقولية " المتأصلة في حياة الإنسان، وأن الابسورد سابق لعصرنا ، بل هو في كل العصور ، فالإنسان في كرب دائما ، وفلسفة سارتر تظهر من خلال قضيتين : الحرية ومقاومتها ، والابسوردية في الوجود. (٤٦) ومما يدل على لا معقولية الوجود الإنساني هو العرضية في حياته أو الصدفية .. فكل الأحداث في حياة كل إنسان تتم " بالصدفة " أي ليس هناك ضابط أو قانون معين يحكم حياة أي إنسان .. إنما تتم أحداث حياته بالمصادفة ، والمقصود عرضية الوجود .

وفي رأي سارتر ليس هناك (مخطط خارجي) أي لا يوجد نظام للعالم ؛ إنما ما يجري في العالم ليس نظاما ، فأوضاع الإنسان لا تندرج تحت أي نظام مخطط له سلفا ، ومن الخطأ التصور وكأن هناك شيء مخطط له منذ الأزل في (لوح محفوظ) . وأن الكون عرضي تماماً ، فالحياة بهذا المعنى عبث أو لا معقولة ،ويتبع ذلك الفهم الوجودي بأن وجود كل فرد لا يحكمه أي نظام . فهذا العالم عارض تماماً ، لأنه يمكن أن يحدث أي شيء لأي شخص في أي لحظة. فلا العلم ولا غيره يستطيع أن يتنبأ بما سوف يحدث للشخص .. فتاريخ حياة كل إنسان في نظر الفيلسوف الوجودي هو سلسلة من الأحداث العارضة .(٤٧)

وينتج عن تصور الوجودية لهذا الإنسان أو " الإنسان الفرد " ، أنه ذلك الإنسان الوحيد في هذه الحياة الذي يأتي وحيداً ، ويعيش وحيداً ، ويموت وحيداً .. وبالتالي لا معنى لحياته ... والمعنى الوحيد يكون فقط في القرارات الفردية والالتزام الشخصي والمشاعر التي ترضيه .

وعند الوجوديين " كل وجود عارض " ، فتاريخ الحياة في نظر الوجودي ليس إلا سلسلة من الأحداث العارضة ، لأن الناس الذين نتعرف عليهم ونصادفهم ، نحبهم أو نكرههم ، كل ذلك جاء مصادفة أي عرضاً .(٤٨) وقد أوضح الوجوديون أن الإنسان قد ألقي به إلى هذا العالم بدون سبب معقول . وأنه يخرج من هذا العالم أي يقضي على وجوده بالكيفية نفسها . (٤٩) " فإذا سلمنا بأن الكون عارض تماماً بمعنى أن أي شيء يمكن أن يحدث فيه للشخص بالصدفة ، فعندئذ يكون

من العبث أو اللامعقول (أي من التناقض أو اللامنطقي) أن نستمر في الاعتقاد أو السلوك كما لو كانت للحياة أية غاية أو خطة أو نظام عام . ففي عالم تظل فيه الحوادث ، بقدر ما تؤثر في حياتنا الفردية ، عشوائية لا يمكن التنبؤ بها ، يعيش بالضرورة دائما على حافة هاوية من اللايقين".(٥٠) وعند سارتر قي إحدى رواياته يجلس البطل في حديقة وفجأة يدرك "الطابع العرضي" الكامل للموقف : أي وجوده في الحديقة في هذه اللحظة بالذات : وكل جذر الشجرة البارز ، بل كونه حياً في هذا الوقت بالذات . فقد كان من الممكن أن تكون الأحداث قد وضعته في مكان آخر من تلك اللحظة ، وقد يكون للجذر شكل آخر مختلف .

أما أن يعيش البطل في هذه اللحظة ، بدلاً من أن يكون قد عاش في قرن ماضي ، أو بويضة المرأة واللقاء مع حيمن الرجل ، إنما هذا اللقاء حدث " بالمصادفة المطلقة " . ولماذا نجا من كثير من الأخطار كالحوادث أو الحرب أو الأمراض وعاش إلى مرحلة النضج .. ؟ (٥١) ألم تك تلك الأحداث حدثت بالصدفة؟ ان هذا يفسر لنا معنى حياتنا ووجودنا " اللامعقول ". " وهكذا فإن الواقع الإنساني يشارك، عبر هذه الكينونة المعطاة له، في العرضية الكينونة للوجود، ويشارك بالنتيجة في ما كنا ندعوه (العبثية). هذا الاختيار هو عبثي، ليس لأنه من دون مسوغ ، بل لأنه لم يكن هناك إمكانية لعدم الاختيار ". (٥٢) وفي رأي سارتر كل شيء عبث ، وهذا العبث يحيط بالكينونة كلها . (٥٣)

وفي رأي سارتر إذن أن العالم لا يقوم على نظام معين – أنما يقوم على الصدفة المحضة ؛ ومن ثم؛ هو عالم لامعقول ، فالإنسان تسيره الأحداث ولا يعلم عن المستقبل أي شيء، إلا ضمن عنصر التنبؤ ، وهذا قد يكون في قوانين الطبيعة ، إنما في الوجود الإنساني فالحياة عرضية ، ووجود الإنسان لامعقول وعبثي .

ومن الواضح فان النظرة الابسوردية للوجود ترى بأن الإنسان مقيد إلى الأبد – وكل ما هو موجود يكون بنفس هذه المكانة أو القيمة – نحن نعيش كأشياء مادية ؛ قبل كل شيء ؛ فلا توجد قيمة ولا مقياس – أننا لا نملك شيئا في الحياة . (٥٤)

ب- عبث الوجود عند ألبير كامي :

بدأ البير كامي في كتابه " أسطورة سيزيف " ، إن الشعور بالابسورد يملأ قلب الإنسان ويشوه عمله ؛ ولا يمكن إنكار بان الابسورد موجود في الحياة بصورة مؤكدة .

إن الوجود عند " كامي " هو وجود " عبث " بمعنى وجود لا جدوى منه في أي شيء ، لذلك كان كتابه عن " سيزيف " كشفاً لأرائه في اللامعقول ويقول عن " سيزيف " : " قدر عليه أن

يحمل الحجر إلى أعلى الجبل ليسقط منه عند تمام وصوله ، ويهبط ليعيده ، وتتكرر المأساة، عبث صعوده ، وعبث محاولته ، وعبث عمله " .(٥٥)

يرتكز فكر " كامي " على مفهوم اللامعقول . وأنه يشبه الإنسان في الحياة مثل " سيزيف " الذي عاقبته الآلهة . يحمل الصخرة الثقيلة إلى قمة الجبل والتي كلما كاد أن يصل إلى القمة يسقط مرة بعد مرة وإلى الأبد . وقد كان يتمنى لو كان " سيزيف " حجر مثل الحجر الذي يحمله ، ولكنه كان محكوماً بالوعي أو الشعور الذي يسومه سوء العذاب كلما خلى إلى نفسه ، فيظهر له العبث . والمقصود بالعبث لدى " كامي " هو ذلك السيناريو اللامعقول ونهاية لا معقولة لكل موجود الذي عليه أن يعمل ليقتات إلى غير نهاية ، ولكن فقط عند الموت سيتوقف كل شيء . (٥٦)

عندما استخدم " كامي " أسطورة " سيزيف " (الأبسوردية) إنما كان يقصد به الحياة أو الوجود الذي يعيشه الإنسان المعاصر .. وهي الأسطورة التي قالت بها الفلسفة اليونانية . " فهو يختار الأسطورة اليونانية ليلخص بها فلسفته ، والموقف الأبسوردي يجسده سيزيف الذي يصعد الجبل بالحجارة لتقع منه ثم يصعد من جديد .. " (٥٧)

وفي الأسطورة تتوضح فكرة " البير كامي " في الأبسورد واللامعقول ..فضلاً عن تأثره بـ " باسكال و كيركجورد " ، الأول يرفض آراء " ديكارت " المنطقية، والثاني المعروف بثورته على " هيجل " .

إلا أن " كامي " يرفض العقل ، كما يرفض الحدس ، وأية وسيلة أخرى لعقلنة الوجود . ويرفض الاعتراف بأن الوجود ممكن الفهم ، بل أن الوجود عنده غير ممكن الفهم ، وبأن العالم لا معقول ويرفض ادعاء العقل بأن كل شيء في العالم منظم وواضح .. وعلى الرغم من كل ما قيل فإن هذا العالم عالم زائف .

وعند " كامي " أن العالم خلو من كل معنى وعدم إمكانية فهمه . ويرى أن العالم يتصف بالغرابة والعبث . ولو لم يكن للإنسان عقل لاستطاع على الأقل أن ينعم بسعادة كسعادة الحيوان. ولكن الإنسان أبتلي بعقل ، فهو المخلوق الوحيد الذي يبحث في أرجاء الكون عن معنى غير موجود . ويقول لو كنت كشجرة بين الأشجار أو قطاً بين الحيوانات لكان لهذه الحياة معنى ، ولما كانت هناك مشكلة لأن أكون منتمياً إلى هذا العالم .. إن هذا العقل السخيف هو ما يجعلني متضاداً مع كل الموجودات .(٥٨)

" الإنسان يريد أن يعقلن العالم ولكن العالم غير قابل للعقلنة " .(٥٩) ويرى " كامي " أن العالم بلا تفسير ولا يمكن عقلنته . العلم يستطيع أن يحلل كيف يعمل جهاز التنفس في الإنسان ، لكنه لا يفسر لنا لماذا أوجد الإنسان ؟ ، أو لماذا هو يتنفس ويأكل ويتناسل ويتبرز ؟ لماذا هو يعيش العلم ؛ لا يستطيع أن يقدم جواباً على هذا السؤال . والمنطق لا يقوى على مجرد مناقشته .

وكل من تصدى له بالجواب كان هروبياً ... وكل الوجوديين خرجوا من تأملاتهم للوجود بأنه " أبسورد " لامعقول .

وهكذا فالإنسان مثل " سيزيف " يصعد وينزل بلا جدوى ، وكالزمن يلف وعقارب الساعة تمضي ويحل الظلام ويعقبه النهار ، إلا أنه سرعان ما يحل الظلام من جديد ثم تظهر شمس جديدة . وهكذا فالحياة تمر يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة والعمر ينقضي ، وعما قريب يموت الإنسان . وهكذا فالحركة الآلية تؤدي إلى تحطم روح الإنسان ، والزمن يهدم فيه ويسرق عمره حتى يأتي الموت الذي لا مهرب منه . وقد يكون هناك أناس يفسرون مثل تلك الأشياء أنها أشياء ظاهرية فقط لأن هناك أشياء عميقة هي التي سيرت الأمور لهذا الشخص أو غيره .. وأنها في الظاهر عارضة ، لأن هناك " شيئاً خفياً " وراء هذه الأشياء التي تحدث للأفراد .

إلا أن " كامي " والوجوديين عموماً يعتبرون هذه التفسيرات ليست إلا أوهاماً أو خرافات لا معنى لها . لأن هذا الشيء الذي حدث لنا لأننا قررنا أن نفعل هذا أو ذاك . ولكن من الذي جعلنا أن نفعل هذا أو ذاك ، في الوقت الذي كان في الإمكان أن نفعل شيئاً أخر كان من الممكن أن يترتب عليه هذا الحادث أو ذاك ؟ إن هناك من يقول " بالقدر " الذي لا محالة للرضوخ إليه ، وهناك من يقول أن العالم سلسلة غير منقطعة من علاقة " العلة بالمعلول " التي تتسلسل دوماً . إن الوجودي يرفض كل هذه التفسيرات ويعدها مزيفة ، لأنه يرى "المصادفة" هي الصفة الأساسية المميزة لكل وجود .(٦٠)

وبالنسبة للعلة والمعلول فإن الوجودية لا شأن لها بالقوانين الطبيعية التي فيها إمكان للتنبؤ، فقد تكون الطبيعة في حتميتها منتظمة إلا أن الوجودي لا شأن له بها .. إنما هو يعني بتاريخ حياة الأفراد . (٦١)

الوجودية والوعي:

تحاول الفلسفات أن تفسر العالم (الواقع) تفسيراً " معقولاً " ، أي إخضاعه للمنطق ، وهذا لا يمكن لأن المنطق " لازماني " أي أنه يفسر الأشياء تفسيراً " أبدياً " ، بينما الواقع "زماني" متغير أو متبدل باستمرار ، فضلاً عن أن المنطق خاضع للضرورة .. ولنأخذ سارتر مثلاً الذي قسم الوجود بموجب المذهب الظاهرتي إلى وجودين : الوجود في ذاته : يعني الأشياء غير الإنسانية ، كالحيوان والجماد . والوجود لذاته : ويعني به وجود الإنسان .

والوجود لذاته هو الوجود الإنساني أو الوجود الحقيقي الذي يتعلق بموضوعنا "اللامعقول" لأنّ هذا الوجود يتمتع بشيء أساس هو " **الوعي** " أي وعي بالأشياء التي تحيط به في العالم . فيشعر الإنسان بعبث وجوده رغم أنه سيد هذا الوجود ، إلا أنه يكتشف أنه وجد في هذا العالم دون

تبرير أو تفسير ودون سبب معقول. " والوجودي يعد أيضا أن الإنسان لن يجد عوناً في هذه الأرض، ولن يجد ما يهديه أو يحدد له معالم سيره لأنه يؤمن بأن على الإنسان أن يفسر هذه المعالم التي هي أشبه بالطلاسم وأن عليه أن يحلها بطريقته الخاصة . فهو يعتبر إذن أن الإنسان مدعو في كل لحظة لاختراع الإنسان ، وان في هذه الدعوة نوع من الحكم الصارم الذي **لا خلاص** منه ". (٦٢) لذلك فإن "وعي" الإنسان يجعله يشعر بالمعاناة في وجوده ومصيره . ولدى الوجوديين عامة أن الوعي هو الذي يكشف الحقيقة " اللامعقولة " للإنسان وهذا " الوعي " هو الذي يجعل الإنسان يشعر بالمعاناة والعبثية في وجوده ومصيره .

" يقول سارتر : " من العبث أن نكون قد ولدنا ، ومن العبث أننا سنموت ، ومن ناحية أخرى ، تتجلى هذه العبثية كاستلاب دائم لوجودي كإمكانية لم تعد إمكانيتي أنا ، بل إمكانية الآخر. هذه العبثية هي إذاً حد خارجي وواقعي لذاتيتي " (٦٣)

والمسألة ليست وعي الإنسان بالوجود والموت فحسب ، إنما يكتشف في كل لحظة نقصه واحتياجه الدائم إلى شيء يكمل ذاته وإن لم يستطع الوصول إلى الكمال . ويكشف الوعي الإنساني عن مستويات ثلاث لنقص الوجود لذاته واحتياجاته : **الأول** : يعني أنه ليس ذاته ، ولكنه يحاول أن يكمل ذاته . **الثاني** : إنه ليس ذاته أيضاً ، لأنه لم يفعل بعد ما يكفي لكي تحقق ذاته . **الثالث:** يعني أنه ليس ذاته كذلك ، وأنه لن يكون أبداً ذاته ، إذ هو دائماً "وجود لحظي" يزيد أو يقل عما هو عليه . (٦٤)

أما " كامي " فيرى أنه لو لم يكن لدى الإنسان " **الوعي** " لصار جزءاً من العالم ، كالشجرة أو القطة – كما اشرنا – ، ولو كان كذلك لما كانت بينه وبين العالم هوّة يريد أن يلغيها لكي يتطابق معها .(٦٥)

العدم (٦٦) – الحقيقة الوحيدة الثابتة:

يكتشف الإنسان عن اللامعقول حين يعجز عن تفسير التناقض القائم حوله ، فالعدم هو الحقيقة الوحيدة الثابتة ، بل أن العدم هو المطلق ، فكل وجود يحمل في باطنه بذور فنائه ، وهو موجود في قاع الوجود ، وهو كالدودة التي تأكل قلب الوجود – كما يصفها سارتر .(٦٧) ويرى سارتر أن الوجود يأتي أولاً ، أما العدم فمنشق من الوجود . إنه مسكن الوجود ، وعنده أن العدم كامن في قلب الوجود . (٦٨)

وعلى الرغم من اللامعقول لوجود الإنسان إلا أنه يتميز عن سائر الموجودات فإن الإنسان يتمتع " بالحرية الأصلية " ، وبالحرية هذه يقوم الإنسان باختيار نفسه رغم العدم الذي داخله .

ومهما كسب الإنسان اجتماعياً وحقق مكاسب في المجتمع ، فإن كل ما يحققه في واقع الحياة لا يرتفع أبداً إلى مستوى ما يعانيه روحياً في وجوده المتفرد .

هناك اللامعقول يغطي كل شيء في حياة الإنسان ، أو ما يسمى بالعبث .. فلا بد أن يختار الإنسان نفسه ، بحرية مطلقة ، وما يسميه سارتر " إرادة الفعل " للوجود لذاته ، بمعنى أن يختار الإنسان نفسه ، يختار وجوده ، وهذا مما جعل سارتر يقول : إن وجود الإنسان سابق على ماهيته ، أي أن الإنسان هو مجموع أفعاله التي تتحقق بالفعل .

وإذا كان اللامعقول أو العبث في أعماق كل وجود الإنسان فالسبيل إلى لقاء العدم واللامعقول والانتصار عليها هو الحرية المطلقة . وإن الإنسان مجموع أفعاله أي التي يحققها بالفعل . وهذه الحرية في جوهرها لا معقولة أو عبثية لأنها " حرية شيطانية " فتلك الحرية اللامعقولة هي وسيلة الإنسان الوحيدة للقاء العدم ومحاولة التغلب عليه . وإن " الحرية " هي جوهر الإنسان ، وهي ملاذه الوحيد أمام " العدم " و" اللامعقولية " .(٦٩)

إن " علاقة صحيحة بين مبدأ العدم هذا وحرية الإنسان . لا يوجد شيء يستطيع أن يضطرني إلى أن أتصرف بطريقة دون أخرى ، ولما كان المستقبل مفتوحاً فإن العدم يواجهني وأنا أتطلع إلى المستقبل وفي مواجهة هذا الخواء الطبيعي وأن أشعر بالقلق والكرب . وإن هذا القلق أو الكرب الذي يكشفه العدم لي هو برهان على حريتي ". (٧٠) وبهذا فان اللامعقول أو الابسورد هي تلك المقولة الوجودية الأساسية التي تعطي هوية هذه الفلسفة ؛ فكل الوجوديين يعترفون بان العقل ضعيف وغير قادر على حل مشاكل الإنسان العادية – فكيف له أن يفهمنا طبيعة الحياة أو الموت؟

الخاتمة:

الاستنتاجات التي يمكن أن نستخلصها هي:

أولاً : رفض الفلاسفة الوجوديين العقل كوسيلة لفهم العالم ، ورأوا أن الإنسانية قد أخطأت عندما حاولت " عقلنة " الكون وفهمه ، لأن الإنسان سوف لا يتلقى إلا شيئاً واحداً ألا وهو الوجود " اللامعقول " ، وذلك لمحدودية قدرات الإنسان العقلية . وبهذا فإن العقل عند الوجوديين أمثال " كيركجورد " و " وسارتر " ، ليس قوة مطلقة ، ولا يستطيع حل مشاكل الإنسان .

ثانياً: العالم عند الوجودية لا يعتمد على نظام معين بل يسير بصورة عشوائية " عرضية " بالصدفة، ولا يمكن التنبؤ بأحداثه ، انه عالم مملوء بالخوف والقلق والاغتراب، وهي صفات داخلة في نسيج الوجود الإنساني ، أي أن هذه الصفات من طبيعة الوجود ، وليست طارئة تزول بزوال السبب .

لهذا تنطلق الوجودية في نظرتها للوجود الإنساني بما فيه من ألم وخوف ... على أنها أوصاف " أصيلة " من طبيعة وجوده ، وهي أوصاف ليست طارئة أو قابلة للمعالجة أو يمكن التخلص منها .. والمقصود بهذه الأوصاف عند الوجودية هي : الشعور بالاغتراب والقلق والخوف من الموت ... الخ ... إن هذه الأوصاف تشعر الإنسان بتفاهة الوجود أو الحياة ، فهي عبث أو لا معقولة . ومن الخطأ الاعتقاد أن الشعور باللامعقول أو العبث نابع من الظروف الخارجية التي مرت بها أوروبا من حربين عالميين ، إنما المعاناة الوجودية وجدت منذ وجد الإنسان ، لأنها من طبيعة الوجود التي تكمن في أعماقه.

ويفسر بعضهم بأن نظرة الوجوديين للعالم اللامعقول جاءت لأسباب خارجية كالحربين العالميين مثلاً ، وما أدت إليه من مآسي للبشرية ، إلا أن السبب الأساس في عذاب الإنسان كالقلق والخوف أصيلة في الإنسان – كما أشرنا – وهي التي تشعره بتفاهة الحياة .

ثالثاً : وجوهر اللامعقول عند الفلاسفة الوجوديين يكمن في مسألة " الموت " إذ أن البشر محكوم عليهم بالموت ، وهو المصير الذي سيصل إلى جميع البشر حتماً . والجميع ينتظر موته ، فهذه الحياة – إذن – لا معقولة أي فاقدة المعنى . فإذا كان العالم غير منظم ولا قائم على أساس عقلي فهو خال من كل يقين . لهذا يتفق الفلاسفة الوجوديين أمثال " كيركجورد" و " كامي " و " سارتر " على أن الوجود الإنساني يتصف بالعبث واللامعقول.

رابعاً : هناك تيار فكري قوى فكرة اللامعقول لدى الفلسفة الوجودية ألا وهو التيار الذي عارض النزعة العقلية في العلم والحياة عموماً أمثال : " باسكال" و " بوانكاريه " ، في العلوم الطبيعية ، ثم كان لـ " شوبنهور " التأثير الكبير في قوله بالإرادة بدلاً من العقل ، أو أن العقل تابع للإرادة ، فضلاً عن رأي " سيجموند فرويد " ورأيه في فكرة " اللاشعور " التي أكدت بأن هناك قوة تتحكم بالإنسان غير العقل . يرى " فرويد " أن تصرفاتنا لا تتم على العقلانية إنما هي مجرد مسوغات ، وذلك لان ما يدفعنا للتصرف هي دوافع لا واعية (لا شعورية) .

خامساً : وأخيراً إذا أخذنا برأي الفلاسفة الوجوديين " باللامعقول " على أساس أنهم ضد المنطق ، فكيف نستطيع القول ان الإنسان مازال يفكر ؟ وبالتالي ألم يكن الفلاسفة الوجوديين مفكرين ؟.

الهوامش والمصادر :

1. Paul Roubiczek : Existentialism for and Against, Cambridge, University press,1964,p.161.

٢. الخوف : هناك فرق بين الخوف والقلق عند الوجوديين ، فالخوف له سبب معين كالخوف من سرقة بيتي ... وبين القلق الذي هو إحساس بانزلاق الوجود من تحت قدمي .

٣. محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ١١٧ .

٤. جون ماكوري : الوجودية ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٢.

٥. هيجل : (١٧٧٠-١٨٣١) ، فيلسوف ألماني . صاحب " المنطق الديالكتيكي" .

٦. هيجل : محاضرات في فلسفة التاريخ ، جـ١ ،ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة مصر ،١٩٧٤، ص٧٣.

٧. هيجل : محاضرات في فلسفة التاريخ ، ص٧٣.

8. Norman N. Greene: The Existentialist Ethic Jean Paul Sartre , University of Michigan press, 1960 ,p.5.

9. Paul Roubiczek : Existentialism for and against , University of Cambridge, 1964, p.16.

١٠. كيركجورد ، سيرين : (١٨١٣-١٨٥٥) ، فيلسوف لاهوتي دانيماركي . يعد مؤسس الفلسفة الوجودية الحديثة.

١١. فؤاد كامل عبد العزيز : فلاسفة وجوديون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص٢١ .

١٢. أسطورة سيزيف : تتضن هذه الأسطورة بأن الآلهة قد حكمت على " سيزيف " بأن يدحرج للأبد حجراً يبدأ به من أسفل الجبل يصل إلى القمة ، ثم إذا وصل إلى هناك سقط الحجر متدحرجاً بحكم ثقله ، فيبدأ سيزيف من جديد وهكذا . فكأنها حكم الآلهة أنفسهم بأنه لا أفظع من الحكم على الإنسان بأن يعمل بلا جدوى ولا أمل .

١٣. ألبير كامي : أسطورة سيزيف ، ترجمة عبد المنعم الحفني ، الدار المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة، دون تاريخ ؛ ص١٤٠-١٤١ .

١٤. عبد الحميد فرحات : سارتر وتفسير اللامعقول ، مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٢٦ ، سنة ١٩٦٧ ، ص٢٨.

١٥. مارتن هيدجر : ما الفلسفة ؟ ما الميتافيزيقا ؟ ترجمة فؤاد كامل ومحمود رجب ، ط٢ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص٥٢.

١٦. عبد الحميد فرحات : سارتر وتفسير اللامعقول ، ص ٢٩.

١٧. أندريه مالرو : (١٩٠١-١٩٧٦) ، روائي وكاتب فرنسي . أشهر آثاره رواية " المصير البشري" عام١٩٣٣.

١٨. ألبير كامي : (١٩١٣- ١٩٦٠) ، فيلسوف وجودي فرنسي ، عاش في الجزائر . ولد في ولاية قسنطينة من ولايات الجزائر . توفي ألبير كامي في حادث سيارة بين " سان " و " باريس " إذ تدحرجت سيارته المسرعة من الطريق وانقلبت في وادي . هكذا مات " فيلسوف الصدفة " ، والعبث واللامعقول بالصدفة ، وبطريقة لا معقولة . أهم مؤلفاته : رواية " الغريب " ١٩٤٢ و " الطاعون " ١٩٤٧ ، أسطورة سيزيف ١٩٤٢ " السقوط " في ١٩٥٦ ، الإنسان المتمرد.١٩٥١ .

١٩. جان بول سارتر : (١٩٠٥-١٩٨٠) ، ولد سارتر يتيماً ، فقد والده وعمره ثمانية أشهر ، مما جعله يتعلق بأمه تعلقاً شديداً يصل إلى حد العبادة .. من هنا كان تأثير الأم على الطفل ذا أثر سيء . كان الطفل سارتر مرهف الحس ومعتل البنية . عانى في طفولته من الاضطراب وعدم الاستقرار بسبب انتقال أمه إلى باريس للعيش مع والدتها بعد وفاة زوجها ، وكانت جدته هي المسيطرة على حياتهما في هذه الفترة مما أصاب تقديسه لأمه بجراح لا تندمل ، إذ كان ينظر إليها باعتبارها إلهة ، وليس من السهل عليه أن يرى هذه الآلهة تحت رحمة الجدة . وعلى الرغم من قسوة الحياة فقد كانت الأم عطوفة عليه بصورة كبيرة . وكانت الصدمة الكبيرة في حياة سارتر الطفل حينما تزوجت أمه للمرة الثانية ، وقد بلغ حينها الحادية عشر من عمره ، وبهذا الزواج تألفت " العقدة الأساسية " في مأساته . إن هذه الصدمة أدت بسارتر إلى "إنكار كل القيم الأخلاقية القائمة" و " إنكار الحب والأمومة " ، وكل العواطف التي تربط بين الناس . وفقدانه لأمه بعد زواجها دفعته إلى القول : أن وجود الإنسان ليس ما يبرره .. وأدت به هذه التجربة إلى الإلحاد . عاش سارتر حياته غارقاً في الخيال ، إذ وجد أن الواقع

مر المذاق لا يستطيع استساغته .. وعندما كان طالباً في المدرسة العليا أصبح شغوفاً بالقراءة والاطلاع غريباً في اختياره الكتب التي يقرؤها ، فكتب مقالات فلسفية متعددة ، وكان يستغرق في الكتابة استغراقاً شديداً . وبعد تخرجه اشتغل في تدريس الفلسفة ، وفي سنة ١٩٣٨ نشر روايته (الغثيان) فوطد بها مستقبله ككاتب روائي تنبأ له النقاد بمستقبل عظيم في عالم الأدب .

٢٠. ألبير كامي : أسطورة سيزيف ، ترجمة عبد المنعم الحفني ، ص٧.

٢١. المصدر نفسه ، ص٨ .

٢٢. العقلانية : قدرة الإنسان على المعرفة عن طريق العقل أو المنطق ، بعيداً عن تسلط العواطف والمشاعر في الحكم على الأشياء . والعقلانية هو اتجاه مميز في نظرية المعرفة ، يقابل التجريبية ، ويبالغ أنصاره في دور العقل في المعرفة ، ويعزلونه عن التجربة الحسية . ويرون أن بوسع العقل وحده التوصل إلى معرفة يقينية ، لأن النظرة العقلية تتسم بالشمول والضرورة .. ويؤكد هؤلاء العقليون على وجهة نظرهم في القول بالفطرية مثل ديكارت وليبنتز ، أو الأفكار الموجودة في ذهن الإنسان قبل التجربة مثل رأي " كانط " . (المعجم الفلسفي المختصر : ترجمة توفيق سلوم ، ص٣٠٥) .

٢٣. ألبير كامي : أسطورة سيزيف ، ص٨.

٢٤. المعجم الفلسفي المختصر : ترجمة توفيق سلوم ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٦ ، ص٣٩٣.

٢٥. عصر العقل : مرحلة في التاريخ أكد فيه الفلاسفة على أهمية العقل على أنه أفضل وسيلة للمعرفة . ويسمى أيضاً بـ " عصر التنوير " أو " عصر العقلانية " . وتمتد هذه المرحلة من أوائل القرن السابع عشر الميلادي واستمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي . وعند فلاسفة التنوير فإن العقل أصبح القوة التي لو استغلت من قبل البشرية لاستطاعت أن تحررهم وتنشر التقدم والسعادة . وهكذا أصبح الناس أيضاً يرون أنه يجب أن يحكم العقل الواقع وبالذات الواقع الاجتماعي.

٢٦. محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ،ص٩٤.

٢٧. بلير ، باسكال : (١٦٢٣-١٦٦٢) ، عالم وفيلسوف فرنسي . ذهب إلى أن القلب لا العقل ، هو السبيل إلى معرفة الله . من أشهر آثاره (خواطر) .

٢٨. موسوعة الفلسفة: عبد الرحمن بدوي، جـ ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١ ، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٥٥.

٢٩. المرجع نفسه : والصفحة .

٣٠. أندريه كريسّون : باسكال ، ترجمة نهاد رضا ، منشورات عويدات ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٥، ٤٥.

٣١. وفيق عزيزي : شوبنهور وفلسفة التشاؤم ، دار الفارابي ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٨ ، ص١١١.

٣٢. السيد شعبان : فكرة الإرادة عند شوبنهور ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٣، ص٥٠ .

33. Ra eymacker, Louis DE : Introduction to philosophy , Translated by Harry MCNEILL, New York city, forth Impreission,1957,p.145. .

٣٤. السيد شعبان : فكرة الإرادة عند شوبنهور ، ص٥٠ – ٥١.

٣٥. جورج لوكاتش: تحطيم العقل، ت: الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر جـ ٢، بيروت، دون تاريخ ، ص٣٠.

٣٦. عبد الرحمن بدوي : شوبنهور ، دار النهضة العربية ، ط٣ ، القاهرة ، مصر ، ١٩٦٥ ، ص٢١٤.

٣٧. موسوعة الفلسفة : عبد الرحمن بدوي ، جـ٢ ، ص٣٥ .

٣٨. هنري بوانكاريه : (١٨٥٤-١٩١٢) ، فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي ، مؤلفه الأساس " قيمة العلم " .

٣٩. حبيب الشاروني : فلسفة جان بول سارتر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، دون تاريخ ، ص٢٧.

٤٠. هنري بوانكاريه : قيمة العلم ، ترجمة الميلودي شغموم ، دار التنوير ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٦ ، ص١٣٣ .

٤١. محمد عابد الجابري: المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، ج٢، دار الطليعة، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٢ ، ص٧٤.

٤٢. حبيب الشاروني : فلسفة جان بول سارتر ، ص٢٨.

٤٣. ألبير كامي : أسطورة سيزيف ، ترجمة عبد المنعم الحفني ، ص ٣١.

٤٤. حبيب الشاروني : فلسفة جان بول سارتر ، ص٢٨.

٤٥. محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ،ص١١٦-١١٧.

46. F. H . Heinemann : Existentialism and the modern predicament , Charles Black ,London ,1958,p.116.

٤٧. محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ، ص١١٦.

٤٨. هنتر ميد : الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها ، ترجمة فؤاد زكريا ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ط ٧ ، ١٩٨٦ ، ص٤١.

٤٩. عبد الحميد فرحات : سارتر وتفسير اللامعقول ، ص١٣١.

٥٠. هنتر ميد : الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها ،ص٤١٢.

٥١. المرجع نفسه ، ص٤١١.

٥٢. جان بول سارتر : الكينونة والعدم (بحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجيا) ، ترجمة نقولا متيني ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، ٢٠٠٩ ، ص ٦١٢.

٥٣. جون د. وايلدز : سارتر (عاصفة على العصر) ، ترجمة مجاهد منعم مجاهد ، دار الآداب ، بيروت ، ط١، ١٩٦٥، ص٤٩ .

54. Colin Smith : Contemporary French philosophy, study in Norms and smith , Methuen , London , 1964, p.26.

٥٥. عبد المنعم الحفني : ألبير كامي ، دار الفكر ، القاهرة ، مصر ، دون تاريخ ، ص٣٥.

٥٦. رولوماي وارفيزلوم: مدخل إلى العلاج النفسي الوجودي ، ترجمة عادل مصطفى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩ ، ص١٩.

٥٧. عبد المنعم الحفني : ألبير كامي ، ص١٤١.

٥٨. روبرت .م أغروس و جورج . ن ستانسيو : العلم في منظوره الجديد ، عالم المعرفة ، ترجمة كمال خلايلي ، عدد١٣٤ ، ١٩٨٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت العلم في منظور جديد ، ص١٠٦.

٥٩. عبد المنعم الحفني : ألبير كامي ، ص١٤٢.

٦٠. هنتر ميد : الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها ، ص٤١٢.

٦١. المرجع نفسه ، ص٤١٠.

٦٢. جان بول سارتر: الوجودية مذهب إنساني، ت: كمال الحاج، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، دون تاريخ ، ص٥٥.

٦٣. جان بول سارتر : الكينونة والعدم ، ص٦٩٠.

٦٤. عبد الحميد فرحات : سارتر وتفسير اللامعقول ، ص٣١.

٦٥. ألبير كامي : أسطورة سيزيف ، ص ١٣٣.

٦٦. العدم :Non– being ، العدم يقابل الوجود . والعدم متضمن الوجود – حسب رأي سارتر . والعدم عند هيجل محرك الجدل من الموضوع (الوجود) إلى نقيض الموضوع (العدم) ، لتأليف مركب الموضوع والنقيض ، الذي هو مزيج من الوجود واللاوجود . يعارض الوجوديون عموماً الفكرة الهيجلية ومنهم سارتر الذي رأى أن الوجود واللاوجود هما من قوام وجودي واحد . إن الوجود يأتي أولاً وأن العدم مشتق من الوجود . إنه "يسكن " الوجود ، يقول سارتر : " إن العدم في قلب الوجود أشبه بالدودة " .

٦٧. عبد الحميد فرحات : سارتر وتفسير اللامعقول ، ص١٣١.

٦٨. موريس كراتسون : سارتر ومشكل العدم ، (سارتر عاصفة على العصر) ، ترجمة مجاهد منعم مجاهد ، دار الآداب ، بيروت ، ط١، ١٩٦٥، ص٥٣.

٦٩. عبد الحميد فرحات : سارتر وتفسير اللامعقول ، ص٣٢.

٧٠. موريس كرانستون : سارتر ومشكلة العدم ، ص٥٣-٥٤.